ضجيج روح
ربوع جابر

الإهداء

إلى من غمر قلمي بالإرادة و الحب

إلى من دعمني و ساندني لأثبت قدمي على طريق الحلم ، و أمشي في درب الكتابة.

إليكَ أهدي قصتي هذه

ليلةٌ قمراءُ و ضوءُ القمرِ يتسلّلُ بكلِّ هدوءٍ ليقبّلَ وسادتها ، تلكَ المثقلةَ بالأحلامِ المتخمةَ بالأمنياتِ .

لكن أين هي ؟ أين ليلى من سرير المنفى هذا؟

جلستْ قربَ النافذةِ ترسمُ في الهواءِ قصوراً و تشعر بالنسيم يأخذها و يقطع بها بحوراً.

لكنها لم تشعر بأيدي القمر و هي تعانق خدودها التي سقط عليها غبار الذهب غدا نمشاً رقيقاً،ولم تسعفها المرآة عندما اشتاقت أن ترى الرماد الساكن عينيها الواسعتين كمجرة منطفئة ، تلمسُ وجهها و تحاولُ نفضَ ذكرياتِ اليومِ المشؤومِ عنها،تحاولُ رسمَ ملامحها بعد كل هذه السنين التي مضت،تعود التخاطب نفسها :

- أتنجح هذه المحاولة؟

رمتْ سؤالها في حضن الليل، و عادت إلى فراشها.

و تقوقعَ اللَّيل على نفسه محتضناً أسئلتها ، و تلاشى مع إشراقة يوم ربيعي جديد ، تاركاً النّهار يتوهجُ بشمسه و فيروزه التي أيقظت ليلى،دغدغت رائحة القهوة أنفها ،وشرعت تسبح في المكان باقات بنّ منتقاة بكامل الحب ، تضمها مسامها ويعبق قلبها الرقيق بشذاها.

- ليلى،أعرف أنك استيقظتي هيا تعالي لنشرب قهوتنا.

فتحت ليلى عيناها اللتان لم تكن تفرق بين ليل ونهار ، على عكس قلبها ؛ الذي يشعر بتواتر كل وقت وكل ساعة ويستطيع بث النور فيها.

انضمت ليلى إلى علياء التي بدأت الحديث :

- كيف حالك؟
- بخير لكن..
- لكن ماذا ؟
- لا شيء مجرد هواجس وخوف لابد منه.

- لا تقلقي،ستكونين بخير.

و ساد صمتٌ يشوبهُ كثير من التّوتر والكلمات العالقة على شفاههما،لطالما كانت علاقتهما غير طبيعية ، لكن إلى متى ؟

انسحبت علياء من المكان بهدوء، بالأحرى متظاهرة به واعدة ليلى بموافاتها بعد العملية،وفي تمام الثّانية عشرَ ظهراً كانت ليلى تشمُّ رائحة المعقمات تملأ المكان،تسمع رنين الأدوات وهي توضع تباعاً على الطاولة ،أصوات الأجهزة تشد أعصابها.

وقبل أن يباشر الطّبيب عمله قاطعته بصوت يضجُّ بالألم،وروح تئن من شدة الوحدة :

- أرجوك لا تؤذيني كما فعل غيرك.

مدت يدها في محاولة لتلمس وجهه و أكملت بعد أن دنا من يدها دون وعي منه:

- كن رحيماً بعيونٍ فارقهما الحبُّ و النّور.

شعر الطّبيب بحرقةِ الدّموعِ في عينيه لكنه تماسك و طلب منها أن تسترخي، وباشر عمله.

➢ الطبيب زيد :

- كيف لهذا الوجه الملائكي أن يؤذي أحداً،لم أصدقها ولن أفعل ماطلبت مني.

مضت ساعات و ليلى في العالم الموازي لا تشعر بشيء ، ولم تدرك كم مضى من وقت عندما استيقظت و فتحت عينيها، لكن عبثاً إنها الظلمة مجدداً ،صرخت حتى ارتجف قلبهُ و أتى مسرعاً إليها.

- فشلت،فشلت العملية أليس كذلك؟
- اهدئي قليلاً.
- لا أبصر ، مازلت ضريرة .

اقترب منها و أمسك يديها :

- العملية نجحت و ستبصرين النور لكن انتظري حتى نرفع الضماد عن عينيك.

ابتسمت و في بسمتها كانت جنة الحب تختصر :

- أحقاً سأبصر مجدداً ؟
- أجل، لاتقلقي.

شعرتْ بالحنان يتسللُ من بين حروفهِ و من دفء يديه التي احتضنت يداها فتسرب القلق من بين حناياها بعيداً.

هدأت ليلى وبدأت تعد الدّقائق تباعاً،وبعد ساعة كانت يدي زيد تلامس وجهها.

- ليلى :

شعرتُ بالنّور يلامس عينيَّ كحبات المطر، و أنا عطشى له،بدأت تتضح الصورة أمامي رويداً رويداً ،نقّلت نظري في تفاصيل الغرفة حتى وصلت إليه ، واقفاً قرب سريري بقامته الفارعة و عينيه الحالكتين كالليل وتقاسيم وجهه الرحيمة.

- زيد :

شعرت بعينيها تخترقان قلبي حتى الصميم،أيمكن لهذا الرماد الهادئ في عينيها أن يخلق حريقاً في قلبي الخريفيّ؟

- شكراً.
- لا شكر على واجب آنسة ليلى.
- أريد مرآة لو سمحت.

- تفضلي.

دقاتُ قلبها تتسارعُ أكثرَ و أكثرَ حتى نظرت إلى المرآة وهنا كانت المفاجأة ،لقد تبّدلت ملامحها كثيراً ،غادرتها الطفولة و استقرت في عينيها فقط.

ولمحت ندبة على جبينها،لمستها بحزنٍ عميق.

شعر زيد بحاجتها للبقاء مع نفسها فاستأذنها الذهاب لكن سؤالها استوقفه :

- أين أمي ؟
- ....
- و علياء يجب أن تكون هنا.
- هنَّ على وصول ، ارتاحي الآن.

➢ ليلى :

لطيف وقع النور على عينيَّ اللتين تلتهم كل ماتطال حولها،و كأنني ولدت من جديد،وكأنني لم أكن أبصر قبل تلك الواقعة.

ومضت الذاكرة بها نحو ذلك اليوم :

2 / 2 / 2010

4:00 عصراً

و الجوّ متقلب مابين شمسٍ و غيمٍ أسودٍ وقلب ليلى ينذرها بأذى قادم،رفضتْ تصديق قلبها فهي ذاهبة لرؤية أمها، وكيف للأذى أن يمسها و هي في حضنها الذي حرمت منه منذ طفولتها ؟

لم تعلمْ سوى نصف الحقيقة (أمك هجرتنا يا ليلى،انسيها)كان الجواب الدّائم لسؤالها (أين أمي؟) لكن الآية انقلبت عندما اعترف والدها بالنصف الآخر و عاد صدى كلماته يتردد في وادي ذاكرتها الممزقة:

- لو استطاعت هاتين اليدين النّطق لآثرتا البتر على البقاء تحت سيطرتي،لكن اليوم أشعر بروحي تتقززُ مني و تود رحيلاً،آذيتها بشدة بإدماني الكحول ،ضربي المتكرر لها كاد يودي بحياتها ،هربت وأنقذت حياتها،وعندما فقدتها خفت أن أفقدك أنتِ ، صحوتُ على نفسي لأرعاكِ بما تبقى مني من مشاعر الأبوة والحب لكِ.

كانت هذه آخر كلماته ، رحل وترك ليلى في صراع مع أسئلة لا تنتهي, كل هذه التفاصيل كانت تعاد في ذهن ليلى و هي تقود سيارتها إلى عنوان والدتها التي وجدته بعد عناء.

وجدت نفسها أمام بيت متواضع ،تحمل من الحيرة و الخوف و الشوق الكثير،تقدمت خطوة بخطوة حتى بلغت الباب و قرعته مرة مرتين،و أتى صوت فتيٌ يسأل :

- من هناك؟

استغربت و تساءلت :

- هل أخطأت العنوان؟

عاد صوت الفتاة مجدداً:

- من الطّارق ؟

استجمعت شجاعتها و ردت:

- أنا ليلى.

فتحت الفتاة الباب.

- كيف أستطيع مساعدتك ؟
- أريد مقابلة السّيدة هناء .

اقترب صوت متعب منهما.

- من يريد رؤيتي ياعلياء؟
- أنا..أنا يا أمي.
- ليلى ،لقد أتيتِ أخيراً.

كان الشبه بينهما واضحاً رغم تقدم العمر و الهم الذي جعل وجه هناء ذابلاً و حزيناً ، تقدمت أمها منها و قد تنحَّت علياء جانباً، كان عناقهما أشبه بانتقام من كل البعد الّذي ألمَّ بهما و دموعهما لم تهدأ.

لقاؤهما المؤثر لم يمس علياء إنما تملكها توتر مخيف ،لكن آثرت إخفائه.

- علياء أعرفك أختك ليلى،لطالما حدثتك عنها.

وفي ودٍّ مصطنع اقتربت منها علياء وعانقتها.

- تفضلي يا ابنتي.

دخلت ليلى المنزل ، أنيق و بسيط و يحمل من الحزن الكثير ،تفاجئت بالكثير من صورها تملأ الرفوف اطمأنَّ قلبها إذ لم تكن طيّ النّسيان كما اعتقدت ، جلسن جميعهن في غرفة الاستقبال.

- كنت أعلم أنك ستأتين ، لطالما انتظرتكِ.
- اشتقتك جداً.
- سامحيني لأنني تركتك بين يديه.

قاطع وميض ذكراها الدخول الوضاء لزيد،ابتسمت و هي تمسح دموعها كي لا ينتبه :

- كيف حالك ؟
- لم أعتد الوضع الجديد بعد،لكنني بخير.
- ما رأي عينيك بأن ترى الشمس خارجاً؟
- تتوق لذلك.

اقترب زيد من سريرها و وجيف قلبه لا يهدأ ، أمسك يدها و ساعدها على الوقوف،أحست بدوخة خفيفة و مالت برقتها على صدره ، وانتفض قلبها من نبضه.

ساندها و مشيا معاً ، حتى بلغا حديقة المشفى الواسعة و المليئة بالورود.

- هل لي أن أسألكِ سؤالاً؟
- تفضل.
- كيف فقدتِ بصرك ؟ أتتذكرين التفاصيل ؟

عاد الزمان بليلى و انطلقت تحدثه :

- بعد لقائي أمي بساعات طلبت مني أن أقلّها و علياء إلى منزلنا و أبي،كانت تشتاق لزوايا ذلك البيت،وافقتها و انتظرنا علياء لتجهزّ نفسها،لاحظت غيابها أثناء حديثي وأمي وقد انسحبت بهدوء ، وفي غضون ربع ساعة كنا ثلاثتنا في سيارتي ، والليل يسدل ستائره كلما تقدمنا،وفجأة صرخت علياء بهستيرية :
- توقفي يا ليلى ،أرجوكِ.
- ما بكِ يا علياء؟

قبضتْ كتفيّ بيديها و هي تصرخ بي ، وأنا أكاد أجن من الحالة التي أصابتها،أمي حاولت تهدئتها لكن عبثاً لم تستطع، ازدادت عدوانيتها

و صراخها و انطفأ نور عيني حتى هذا اليوم،لا أعلم ماذا حدث لأمي بعدها،ولمَ لم تزرني ولا مرة هنا.

كانت الدّهشة تعتلي ملامحَ زيد،علياء هي السبب في الحادث.

تابعت و هي تلمس الندبة :

- لا أستطيع التّذكر أكثر ، و مايحيرني أكثر أن علياء لم تتركني طول فترة الماضية ولم تعد لتلك الحالة المستيرية التي أصابتها،كانت طبيعية رغم يقيني بأنها غير طبيعية أبداً.

شرد زيد و كأنه عرف جواب سؤال لطالما حيّره ، غمرهما الصّمت المليء بالأسئلة و هما يمشيان معاً .

جلسا على مقعد منزوٍ قليلاً طلباً للهدوء،الذي أزاحته ليلى بسؤالها :

- كيف حال بيتي يا ترى؟ و أمي و رفاقي ؟
- اشتاقوا لك بالتأكيد.

وغمرهما صمتٌ لطيفٌ يشوبه كلام يقف على حواف شفاههما.

في الجانب الآخر بعيداً عن الحديقة كانت علياء تصرخ من الغرفة التي احتجزوها فيها منذ وصولها.

- تباً لكم أخرجوني من هنا.
- إنها الأوامر ، اهدئي أنت في مشفى.
- سحقاً لكم ولمشفاكم.

ظلّت تصرخ حتى أعلنت حنجرتها الاستسلام ،وبدأت تحدث نفسها :

اهدئي ياعلياء،ستخرجين من هنا بسلامٍ و ليلى فقدت بصرها تماماً كما طلبت من الطبيب،وسأبقى سيدة حياتها الطبيعية التي لطالما حلمتُ بها.

وفي الحديقة :

- أنتشابه أنا وعلياء؟ تكاد ملامحها تختفي من ذاكرتي.
- نعم لكما نفس الشعر الأحمر،الأنف المستدق،لون عينيها كان متبدلاً مابين رمادي و أسود وهذا ما كنت أستغربه.
- لحظة! أذكر أنني في لقائي الأول بها أول مالفتني شعرها الأسود الطويل و عينيها السوداوين.

- أول لقاء؟ ألم تنشآ معاً ؟
- كلا إنها قصة طويلة .

أخذت ليلى تروي لزيد قصتها،وكان يخبرها بما رآه من علياء و عن تصرفاتها وطلباتها الغريبة عندما كانت تمكث هنا معك ، و بدأت تتضح الصورة لليلى :

- سرقت شخصيتي ، شعري الذي قصّته لي عنوة بعد كلام جارح عن عجزها الاعتناء بضريرة مثلي،حتى لون عيناي سلبته مني.

كانت شفتاها ترتجفان و هي ترتشف دمعها علقماً كتلك الأيام.

- اهدئي و دعينا نعود للغرفة يداك ترتجفان من التوتر.

سارا معاً عائدين للغرفة، وفي مسيرهما :

- وأمي كيف حالها يا ترى ؟ عتبي عليها كبير.

➢ زيد :

صمتُّ لم أجد كلاماً أرد به ،أوصلتها إلى غرفتها و اطمأننت أنَّها هدأت ،و ذهبتُ لأرى علياء التي طلبتُ احتجازها في غرفة بعيدة.

دخلت الغرفة كانت بحالة مزرية ، متكّومة على نفسها و ترتجف بتواتر منتظم و هي تهمس كلاماً غير مفهوم .

دموعها أسالت الكحل فتلون خداها الغائران بشلاّل سواد متشع بضياعها الذي يطلُّ من عينيها ،وصوتها كان مبحوح يكاد لا يسمع.

اقتربت بحذر و بدأت الحديث :

- كيف حالك ؟
- من أنت؟ ماذا تريد مني؟ ابتعد ابتعد.
- اهدئي لن أؤذيك.
- جميعكم مؤذين،لا لاتقترب مني.

فعلاً لم تكن طبيعية كما أخبرتني ليلى ، اقتربت منها و هدأتها أخذتها من يدها و جلستُ على جانب السرير.

- هل نسيتِ من أنا ؟
- ماذا تريد مني؟
- أريد أن أعالجك.
- لست مريضة ،هي المريضة ولا أريد لها شفاءً

- كما تريدين ، لكن لماذا تكنّين لها كل هذا الكره ؟
- سلبتني أبي و اهتمامه منذ صغرنا،كان يحبها و يميزها دائماً و أنا أتلقى الصفعات دون عطف أو شفقة .
- أنت تكبرينها أليس كذلك ؟
- نعم أكبرها بثلاث سنوات.
- لماذا كان يضربك والدك؟
- صوت الأنين و الصرخات و الشهقات بعد منتصف الليل كان يثير فضولي و يوتر أعصابي ، أتتبعه وأسترق النظر من ثقب المفتاح وخوفي يكبّلني ، كنت أكرهه كلما رأيت جسد أمي مزّرق من كدماته التي كانت تخفيها عنا.

مسحت دموعها و تابعت :

- في إحدى المرّات لم أستطع صمتاً ،دفعت الباب و هاجمته و أنا أصرخ في وجهه ،كان أقوى مني و بدأ بضربي و نعتي بأبشع الصفات ،لم يكن واعياً و رائحة الخمر الممزوج بعرقه تبعث على التقيؤ.

ازداد شحوبها و هي تبوح بما يعتمل بصدرها من ألم دفين.

- لا تخافي كلما أشباح ذكرى الآن لن تعود.
- لم تعد صورته تراودني منذ هربت و أمي و لم يسعفنا الوقت لنأخذ ليلى معنا ، كانت تغفو في حجره كما كل ليلة جمعة، إلى أن عادت في ذلك اليوم .
- وماذا حدث ؟
- بمجرد ولوجها المنزل أحسستُ أن طيفه يرافقها و يكاد ينقضُّ علينا بنفس الوحشيّة.

ازدردت ريقها بصعوبة ، مددتها بكوب ماء و حثثتها أن تكمل البوح:

- لم أجلس معهما ، و في نهاية زيارتها كانت أمي تطالبها الذهاب معها ، ذهبت معهما على مضض ، صوته صورته كانت كالسكين تطعن روحي على طول الطريق و هي تقود السيارة ثم...
- ثم ماذا؟
- أردتها أن تتوقف و أعود إلى منزلي لم أستطع التّحمل أكثر ، بدأت أصرخ بجنون ، لكن من صدمتها أسرعت عوضاً أن تتوقف و إذ بجسم صلب يصطدم بنا وهنا كانت الكارثة.

وضعت يديها على وجهها و بدأت تنتحب بشدة.

- اهدئي ياغلياء وبوحي بكل مالديك ، سأقف إلى جانبك و أساعدك.

لامستَها الطمأنينة المنبعثة من صوتي و قد رقّ قلبي لحالها ، لم تقصد أذيتها لكنها تخفي سراً و تابعت حديثها :

- أذكر أنني فتحتُ عيني و الدم يغمر أمي و ليلى و أنا أقلّهما ضرراً، مجرد رضوض و كدمات و جروح سطحية لأني كنت أجلس في المقعد الخلفي.

كدت أفقد عقلي و ذات الأنين القديم و الألم القابع في قاع روحي بدأ يطوف على السطح لم أتصور فقدان أمي هكذا وكل ذلك بسببها.

وضعت يديها على أذنيها و عادت تصرخ بدون الوعي :

- أمي ، أمي لا تتركيني.

ناديتُ الممرضة و آتتني بإبرة مهدئ،وبصعوبة حقنتها بها حتى ركنت و استكانت أخيراً.

تركتها و ذهبت إلى ليلى و بمجرد دخولي سألتني :

- لماذا تأخرت علياء ؟ ألم تأتي بعد؟
- هي هنا ،لكن...
- لكن ماذا ؟
- هي مريضة بشدّة و بحاجة لنا لنقف إلى جانبها و بالأخصّ أنتِ.
- مريضة؟
- نعم، لكنّ قبل أن أشرح لك التفاصيل أجيبيني على بعض الأسئلة.
- لم تفاجئتِ بوجود علياء ؟
- غادرت أمي ولم أبلغ من العمر سوى الرابعة ، أذكر ملامح علياء مثل الحلم و عندما اشتدَّ عودي أكدّ لي أبي أنه لم ينجبا غيري فكذّبت ذاكرتي وصدّقته.
- و شجار والديكِ لم يصل إلى مسامعك يوماً ؟
- لا أذكر ، غرفتي كانت قرب الحديقة لعشقي الورد .
- حسناً،ارتاحي الآن.

خرجت من غرفتها و كانت الصور الشعاعية لدماغها تنتظرني في مكتبي،تمعّنت فيها مجدداً و أدركت سبب ذاكرتها المشة .

لقد تلقت ضربة قوية أضعفت ذاكرتها ، وفي خضم غرقي بالأوراق و الصور ،انتشلتني الممرضة و هي تطلب مني التوجه لغرفة علياء على الفور.

ذهبت فوراً ، كانت تنادي باسمي و كأنها لا تعرف سواه :

- أنا هنا لا تقلقي.
- أشعر بدوار شديد.
- سيزول حالاً.
- كيف حالها؟
- كيف تريدين أن يكون ؟
- أسوأ مايكون،نفذت الاتفاق الذي بيننا أليس كذلك؟
- بالطبع،لكن لماذا تريدين أن تبقى ضريرة؟
- كانت مدللته دوماً وحرمتني عطفه،وتوفيت أمي بسببها لأنها أردات أخذنا لذلك المنزل اللعين مجدداً...أليست أسبابي كافية؟
- وماذا بعد ؟
- أعجبتني حياتها،دلال و رفاهية منزل كبير جامعة و عمل جميل.
- وماذا عن حياتك أنتِ؟

تشنجت مجدداً وعادت تئنُّ و كأنَّ حياتها وشخصيتها محبوسة بين طيَّات الماضي و آلامه وقد تركت ذاتها هناك منذ يوم الحادث و تقمصت شخصية ليلى بأريحية ، إنها تعاني فصاماً ذهنياً ،وكلَّما جلست وحيدة تخرج علياء من عقلها و تمثلُ أمامها بكدماتها و صراخ والدها و ضرباته القاسية على جسدها الغض،و أمام العامة كانت تعيش بهدوء و توازن ليلى.

علياء رقيقة وحساسة لكنها لم تستطع الخروج من ماضيها بعد و كأن أمن روحها تلاشى ، و استحال خوفاً مدمراً ، أما ليلى ساعدها عمرها الصغير كي لا تكِّون صورة واضحة عن ذلك الماضي.

قررّتُ أن أخبر ليلى بالتفاصيل ما حدث لعلياء ، لكي نساعدها لتعود إلى شخصيتها الحقيقية.

وجدتها قد غفت من إرهاقها وذهبت إلى ليلى :

- ليلى أريدك أن تكوني بكامل وعيك و اتزانك.
- لماذا؟
- سأخبرك...

بدأ زيد يسرد التفاصيل و الذهول يتملّك ليلى أكثر و أكثر و عندما أنهى كلامه سألته :

- ما ذنبي أنا بكل ماحدث؟ وماهو طلبها ؟و هل اتفقت معها؟
- ليلى لاذنب لك بما حدث ولا هي لها أي ذنب،سأقول لك اسمعيني.
- تفضل كلي آذان صاغية .
- منذ أول يوم أتيت به إلى هنا و أنت محط نظري و قلبي، و كلّما تم تحديد موعداً لعمليتك كانت عليا تخلق مشكلة للطبيب وتمنعه من ذلك و تمنعني من التقرّب منكِ.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وتابعت :

- استثارت فضولي بعد شكاوى الأطباء منها و قررت متابعة حالتك بنفسي.
- لماذا تتردد؟ أكمل أرجوك.
- وقبل عمليتك بعدة أيام، و بعد زيارتها لك فقدت وعيها فجأة كانت تهلوس بشكل لا يوصف بعد أن أخذناها إلى غرفة .

حمل زيد ذاكرة ليلى لتشهد معه ذلك الموقف..

استيقظت بعد محاولات عديدة من الممرضة و زيد ، لكن عينيها كانتا تشعان عدوانية ، حاولت الخروج من الغرفة و جسدها يرتجف من شدة توترها ، أوقفها زيد وحاول تهدئتها ريثما تأتي الممرضة بإبرة المهدئ، وعند رؤيتها الإبرة صرخت :

- أرجوك لا أريد المزيد من المهدآت يكفيني ماحقن في روحي ، أرجوك لا.
- حسناً حسناً أبعدتها ، إذن ألن تخبريني ما بكِ؟
- رفض طلبي مجدداً كما سابقوه.
- من ؟
- ذاك الطبيب المغرور.
- ماطلبك ؟ ربما أستطيع مساعدتك .
- أريدها ألا تبصر مهما حدث.

كانت تكزُّ على أسنانها و تخنق الفراش بيديها وكأنه عنق عدوها ، فهم زيدٌ أنها تقصد ليلى.

- حسناً سيحدث ما تريدين لكن اهدئي.

قاطعته ليلى :

- وافقتها هكذا بكل بساطة!!!
- جاريتها و لم أؤذيكِ كما ترين.
- حسناً و ما المطلوب مني الآن ؟
- الآن ستدّعين أنكِ مازلتي ضريرة و سنساعدها لتعود كل منكما لحياتها.

أخذت ليلى نفساً عميقاً و بمجرد تفكيرها بما عانته أختها وافقت زيد في خطته.

وبعد أن اتفقا ذهب زيد لغرفة علياء برفقة ليلى،نائمة كطفلة بكل هدوء و وداعة بفضل إبرة المهدئ طبعاً.

وفي صباح اليوم التالي توجهت علياء فور استيقاظها لغرفة ليلى التي وضعوا على عينيها ضماداً و ظهرت ملامح الحزن جلّيةً على وجهها.

- صباح الخير ليلى.
- صباح النور.
- هل أنتِ بخير ؟

- كانت هذه فرصتي الأخيرة لأبصر النور لكن..
- لكن ماذا ؟
- فشلت العملية يا علياء.

و بدأت تنتحب ،ارتبكت علياء أكثر و لم تتوقع أن تجذبها عاطفتها لتحضن ليلى التي فرحت في سرها.

مسحت ليلى دموعها و تابعت :

- أريد منك طلباً أخيراً.
- ما هو؟
- أريد أن أبصر بعينيكِ هلا بقيتِ معي ؟
- ماذا تقصدين يا ليلى ؟
- أريد أن أخرج من هذا المكان بعد فترة و أن تكوني صديقتي و أختي ، هكذا أبصر النور ياعزيزتي.

شردت علياء و هي تفكر بطلب أختها.

- علياء هل أنتِ هنا أم ذهبتِ؟
- أنا أنا هنا ، حسناً كما تريدين.

خرجت علياء شاردة و هي تفكر :

- هل أسأت الظنّ فيها ؟ لماذا لست سعيدة ؟ وأليس هذا ما أريد؟

لكن لكن كيف وافقتها الخروج من هنا؟ سأجاريها مبدأياً ريثما أجد حلاً لهذه الورطة.

مرت الأيّام و ليلى تتقرب من علياء تسألها عن ماضيها وحاضرها.. وفي أحد الأيام كانتا جالستان جنباً إلى جنب في الحديقة و عيون زيد تراقبهما من بعيد خوفاً من أي ردٍّ فعل هستيري من علياء.

- علياء ألم تعديني بأن تزورنا أمي اليوم؟
- ....
- أتضررت من الحادث ؟وأنتِ ؟
- ...
- أجيبيني علياء لا تدعيني ضائعة هكذا .

تنهدت علياء و قد طوقت مشاهد ذلك اليوم عنقها و كادت تخنقها.

- أنا لم أتضرر كثيراً جروح وكسر بسيط شفي مع الوقت ، لكن أمي توفيت بعد الحادث بعدة أيام .

جمدت الدموع في مقلتي ليلى رغم النار المستعرة في قلبها ، تلك الأخيرة بلغت عيونها فسال دمعها بارداً مالحاً و غرق وجهها في بحر من عواصف الحزن و الألم.

خرجت الكلمات وشفتاها ترتجفان :

- لم أكد أجدها حتى فقدتها مجدداً.
- لكنها هي لم تفقدكِ ، كنت حاضرة بيننا دوماً ، وكثيراً ما نادتني باسمك.

انهمرت دموع ليلى بهدوء شلالاتَ حزن مرير.

- ليلى،ألم يحدثكِ أبي عني يوماً؟
- ...
- أجيبيني أرجوكِ.
- لا أذكر.
- همههه هذه إجابتك المعتادة منذ وقعتِ و..

سكتت عليا و حاولت تغيير مجرى الحديث :

- سآتي لنا بعصير.

أمسكتها ليلى من يدها :

- متى وقعت؟
- قبل هروبنا أنا و أمي بأسبوع.

أغمضت علياء عينيها مستحضرة تفاصيل ذاك اليوم :

- بعد شجار طويل بينهما انتهى بسقوط أمي مغمياً عليها إثر ضربه لها خرج أبي ليأتي بالطبيب وكنتِ تصعدين الدرج عندما ارتطم بك و وقعتِ،كنتُ ضائعة بينك و بين أمي ، منهارة و ممزقة من هذه الطفولة التي أعيشها ولا تشبه الطفولة بشيء ، تكومتِ على نفسي في إحدى الزوايا و غمرتني دموعي وكأن شللاً أصاب روحي و جسدي .

شعرت ليلى بارتعاش صوتها و انتفاض الدم في عروقها.

- اهدئي ياعزيزتي.

لكن علياء لم تكن تسمعها،تمكنت منها الذكرى وشلّت حواسها مجدداً و تابعت :

لم يكن واعياً لما يفعله و اتهمني بأنني أوقعتك عمداً ،انتظر حتى أسعفكما الطبيب إلى عيادته و فرغ كل غضبه على جسدي،كرهتكِ يومها كنتِ ولا تزالين سبب عذابي.

اقتربت ليلى منها في محاولة لاحتضانها لكن علياء بدأت تصرخ بهستيرية :

ابتعد ابتعد عني ، لم أوقعها لا تضربني أرجوكِ.

كانت بحالة يرثى لها ، تدخل زيد في الوقت المناسب و حقنها بالمهدئ و حملها إلى غرفتها.

وفي شرفة غرفتها جلسا معاً و موسيقا هادئة تشاركهما جلستهما.

- زيد قلبي يحترق إثر رؤيتها بهذه الحالة.
- ألست بحاقدة عليها ؟
- سامحتها على كل شيء،إنها حساسة جداً و روحها هشة للغاية.
- لاحظت ذلك.
- هل ستتعافى ؟

- نعم أنا متأكد ، دواؤها هو الحب ولا شيء سواه لندعها تخرج كل المشاعر التي تخالجها لتعود لنقائها الأول و لتستطيع إيجاد ذاتها.

أخذا نفساً عميقاً و شربا قهوة الحب معاً ، تتالت الأيام و عليا تشعر بأن مشاعر الكره تجاه ليلى تتلاشى، وجدت الحضن الدافئ و الحنان أخيراً فبعد كل جلسة بينهما كانت ليلى تحتضنها رغماً عنها و طلبت من زيد أن يخفف الجرعات المهدئة .

وبعد مرور شهر تقريباً :

- ليلى أريد أن تسامحيني.
- ماذا اقترفتِ لتطلبي السماح ؟
- أنا أنا السبب في الحادث ،أنا السبب في فقدك بصركِ،سامحيني ليلى سرقت حياتك و شخصيتك لأنني كنت ضائعة و مشتّتةَ أرمي وزر الماضي عليكِ، سامحيني أرجوك .

ضمتها ليلى بحنو إلى صدرها :

- لم أحمل في قلبي لكِ سوى الحبّ رغم كل شيء ،أنتِ طيّبة و رقيقة كفراشة ، لكن نار الماضي تحرق أجنحتك وتجعلك أسيرتها كلّما عدتِ لها ، دعينا نبدأ من جديد .

رفعت ليلى وجه علياء ومسحت دموعها :

- علياء ارفعي الضماد عن عيوني.

رفعت يديها المرتجفتين إلى وجه ليلى الهادئ و أزالت الضماد، شهقت:

- أنتِ أنتِ تبصرين!!!
- نعم ياحبيبتي أنا أبصر و نجحت عمليتي ، لكن آثرت إخفاء الأمر عنك حتى تشفى ندوب قلبك أنتِ أيضاً.

عانقتها علياء بفرح طفولي بريء و غمرتهما السماء بمطر نيساني رقيق ،جعل روحهما تنتعش و تتطهر من كل شوائب الماضي.

أما زيد فقد كان يراقبهما من بعيد و لم يستطع إخفاء تأثره ،وقد تعاظم حبّ ليلى بقلبه بعد موقفها من أختها و تمتم :

- حان الوقت المناسب.

عادت الأختان أدراجهما وغفت عليا في حضن ليلى بأمان و قد أصبح الحلم بحياة طبيعية هادئة قريباً جداً.

طرق زيد بخفة على بابهما :

- تفضل.
- مرحبا ليلى.
- أهلا زيد ، بماذا أستطيع مساعدتك؟
- أريد مخاطبتك بموضوعٍ مهمٍّ
- حسناً سأوافيك بعد دقائق.

خرجت ليلى بعد دقائق ، اهتز جوالها برسالة منه :

- أنتظرك في الحديقة،على نفس المقعد.

في الخارج كان ضوء القمر يخيم على المكان و النجوم تتراقص بشقاوة الأمنيات و تلمع بحب عظيم. وصوت فيروز يتسلل بين الورود و يقول لها :

نحنا و القمر جيران بيتو خلف تلالنا بيطلع من قبالنا بيسرق الألحان.

بدأت تدندن معها بصوتها الملائكي و دقات قلبها ترقص على وقع الأغنية .

- زيد أين أنت؟

جاء من وراءها مطوقاً خصرها بيديه وهامساً لها :

- أنا هنا بين اللحن و الكلمة ،بين الورد و النسمة.

التفتت بكامل فرحها لترى عينيه اللتين أحبت الليل فيهما و تابع زيد :

- عندما رأيت عينيكِ لأول مرة تساءلت كيف للرماد الهادئ في عينيها أن يخلق حريقاً في قلبي الخريفي؟
- وهل وجدت الجواب؟
- نعم ،إنها لهيب الحب الذي اشتعل فتيله من النظرة الأولى ، و توهج عندما أحس بمقدار الحب والحنان اللذان يحملهما قلبك.

قاطعتهما فيروز مرة أخرى :

حبيتك بالصيف حبيتك بالشتي...

لكن ليلى أسكتتها هذه المرة :

- أحببت الليل الساكن في عينيك و لكم تمنيت السكون إليه و فيه كقمرِ حبٍّ لا يغيب.

وغمرهما مطر رقيق و صافٍ مثلهما ، و كانت ليلة الحب الأجمل.

و مع إشراقة الصباح ،فتحت الفتاتان صفحة جديدة في كتاب حياتهما ، باعت ليلى منزل والدها وكذلك علياء فعلت مع منزل والدتها مودعتان الذكرى و كل الماضي مع المنزلين و ابتاعا منزلاً صغيراً و مشتل ورد.

و بدأت كل منهما برسم طريقها وحدها بإرادتها و بالحب الناضج بين حنايا قلبها و قد قررتا ألا يكررا الماضي مع أولادهما مهما حدث ، تعمقت معرفة ليلى بزيد بعد خطبتهما و بعد كل موقف كانت تتيقن أنه الشخص المناسب ، أما علياء فقد اختارت دراسة علم النفس و قد أبدعت فيه وفي حفل التخرج كان الختام ، على المنصة مرتديةً ثوب التخرج و الفرح يغمرها لم تستطع ليلى حبس دموعها فخراً و حباً بها وزيد و ابنتها إحساس إلى جانبها يشدان على يدها و قلبها.

- الحب و كل الحب لمن كانت لي العائلة و الصديقة والمدرسة ، والتي تعلمت منها كيف أصنع نفسي و أحقق ذاتي و لا أتقمص

شخصية أحد ، لها ولطبيب العائلة الذي كان بلسماً لنا و عالج جروح قلوبنا كما عالجنا.

لهما كل الشكر.

علا صوت التصفيق و نزلت عن المنصة لتعانقها ليلى .

ومن هنا بدأت علياء رسالتها في مناهضة العنف الأسري و حماية المرأة من آثاره الهدّامة،جعلت من ماضيها حافزاً لترمم روح كل أم تحملت الإهانات و الضرب كرمى لأبنائها،وكل طفل ألم به العذاب، بعد إنشائها جمعية كل هذه الضحايا.

و أنتِ ماذا تنتظرين؟

ارفعي صوت الإرادة عالياً ومزقي حجاب الصمت الذي أرغموكِ على ارتدائه ، و ارفعي شعلة حلمك لتنيري دربك و تحرقي كل من يحاول حرمانك منه.